﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ٤٠﴾ [المؤمنون: 39 - 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الـرّبـط بين تكذيب الرّسولِ ودعـائِـه مـولاه الّـذي وعـده بـالـفَـرَج بعد اليأس

لمّا استوفى في الآيات السّابقة تحريضَ المَلَأ على رسولهم، وصَدَّهُمُ القومَ عنه؛ أخبر - هنا - عمّا يُنبِئ عن يأس الرّسول من هدايتهم، وقلّةِ حيلتِه معهم، وهو اللّجوء والاضطرار إلى طلب نَصرِ الله عليهم، وانتقامِه منهم، فدعا عليهم، واستغاثَ بالله العظيمِ منهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنصُرۡنِي﴾: (نصر) أصْلٌ يَدُلُّ على إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه، فالنَّصرُ: عَوْنُ المظلوم، والنُّصْرة: حُسْنُ المَعونة[1]، والنَّصير فعيلٌ بِمَعْنَى فاعِل أو مَفْعولٍ؛ لأنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المتَناصِرَيْن ناصِرٌ ومَنْصورٌ، والاسْتِنْصار: اسْتِمْداد النَّصْر، والتَّناصُر: التَّعاون عَلَى النَّصْر[2]، والنَّصْرُ: العَطاءُ[3]، والنّصير: النّاصر، والجمع الأنصار، مثل: شريف وأشراف، واستنصره على عَدوِّه، أي: سأله أن ينصره عليه، وتناصروا: نصرَ بعضُهم بعضًا[4]، والمرادُ بالنَّصرِ في الآية: تَغليبُ المُعتَدى عليهِ على المُعتَدي[5].

2) ﴿قَلِيلٖ﴾: (قلّ) أصْلٌ يَدُلُّ على نَزارَةِ الشَّيءِ، وقَلَّ الشَّيْءُ يَقِلُّ قِلَّةً وقُلًّا، فهوَ قَليلٌ، والقُلُّ: القِلَّةُ، وذلكَ كالذُّلِّ والذِّلَّة[6]، والقِلَّةُ:

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نصر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 45.
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلل، قلّ).

خِلاف الكَثْرَةِ، والقُلُّ: خِلافُ الكُثْرِ[1]، والقِلَّةُ والكثرة يُستعملان في الأعداد، كما أنَّ العِظَم والصِّغَر يُستعملان في الأجسام، ثمَّ يُستعار كلُّ واحدٍ منَ الكثرة والعِظم[2]، والمرادُ بالقِلَّة في الآيةِ: خِلافُ الكَثرةِ، أي: بعد زمن قليل.

3) ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾: (صبح) أصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهو لَوْنٌ مِنَ الألوانِ، قالوا: أصلُهُ الحُمْرةُ، وقالوا: وسُمّيَ الصُّبْحُ صُبْحًا لِحُمْرَتِهِ، كما سُمّيَ المِصباحُ مِصْباحًا لِحُمْرَتِهِ[3]، والصُّبْحُ: أوَّلُ النَّهارِ، يُقال: صَبَّحْتُ الرَّجُلَ: إذا أتَيْتَهُ أوَّلَ النَّهارِ، وأصبَحَ القَوْمُ: إذا دخلوا في الصَّباحِ[4]، والصَّباحُ: نورُ النَّهارِ[5]، ويُطْلَق عليه: الفَجْرُ، والغَداةُ، وضِدُّه: المَساءِ، وجَمعُه: أصْباحٌ[6]، وفِعل الإصباح في الآية هو مِنْ أفعالِ الزَّمنِ، فوعَدَ اللّهُ تعالى الرَّسولَ نَصْرًا عاجِلًا، فهو تعبير لبيان أنَّ الوعيد آتٍ لا ريبَ فيه، وفي وقتٍ قريبٍ[7].

4) ﴿نَـٰدِمِينَ﴾: (ندم) أصْلٌ يَدُلُّ على تأسُّف على الشيءِ وتَلَهُّفٍ على فَوْتِهِ، يُقالُ: نَدِمَ عليه نَدَمًا ونَدامَةً[8]، والنَّدْمُ والنَّدامَةُ: التَّحَسُّر من تَغيُّر رأي في أمر فائتٍ[9]، ونَدِمَ على الشَّيءِ، ونَدِمَ على ما فعَلَ نَدَمًا ونَدامةً، وتَنَدَّمَ: أسِفَ[10]، وأصله مِن مُنادَمَةِ الحُزن له[11]، وحقيقةُ النّدمِ: أن يلوم نفسَه على تفريطٍ وقع منه، وقيل: النّدم غمٌّ يصحب الإنسانَ، يتمنّى أنّ ما وقع منه لم يقع[12]، وعلى ما سبق: فالنَّدَمُ في الآية مُرادٌ به الأسَفُ على فِعْلٍ صَدَرَ[13].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّهُ تعالى: أنَّ رَسولَهم دعا رَبَّه قائِلًا: (ربِّ انصُرْني على قَومي، فأهلِكْهم

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قلل).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبح).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبح).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صبح).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 58، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 34.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ندم).
(9) الرّاغب، المفردات: (ندم).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (ندم).
(11) الرّاغب، المفردات: (ندم).
(12) الزّبيديّ، تاج العروس: (ندم).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 26/ 232.

بسَبَبِ تَكذيبِهم برِسالتي)، فقال اللّهُ مُجيبًا لِدَعوةِ ذلك الرَّسولِ: (سنُعَذِّبُهم قَريبًا، فيُصبِحونَ نادِمينَ على كُفرِهم وتَكذيبِهم)[1].

دعاءُ الرَّسولِ على أقوامِهم بالعذاب ما كان إلّا نتيجةَ طُغيانِهم وصَدِّهم عن دين الله

إذا انقطعتِ الحيَلُ فبابُ اللهِ هو الأمَل

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾:

جملة ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ استئنافٌ بيانيّ، فبينَها وبينَ الجملة قبلَها شِبهُ كمالِ اتّصال، ولذلك فُصِلَت، والجملةُ على تقدير كونها جوابًا لسؤال مُقَدّر عن نتيجة عنادهم، وما آلَ إليه أمرُ الرّسول معهم؟ فأجيبَ بالإخبار عن موقف الرّسول بالاستنصار عليهم منَ اللّه، والاستعانة به، والاستفتاح بفتْحِه[2].

نُكْتَةُ الاستنصار باسم الرُّبوبيّة:

الدّعاء باسم الرّبوبيّة في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾؛ لأنّ النّجدةَ من أفعال الرّبوبيّة، وكلّ واصلٍ منَ اللّه إلى النّاسِ مِنْ عطاءٍ أو إغاثةٍ، فبمقتضى ربوبيّة اللّه وصَلَ إليهم[3].

نُكْتَةُ طلبِ (النّصر) دون (النّجاة):

النّصرُ مشتَمِلٌ على عقاب الخصمِ والانتصافِ منه

لم يقل في السّياق الكريم: (رَبِّ نَجِّني بِما كَذَّبونِ)، بل قال: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فسأل النّصرَ دون النّجاة؛ لأنّ النّجاة قد لا يصحبُها نَصْرٌ، فهي مجرّدُ تخليص شيءٍ من شيء، وأمّا سؤالُ النّصْر، فيشتمل على النّجاة وزيادة؛ لأنّ في النّصر علوٌّ على الخصم وانتقامٌ منه، وعِزّةٌ للمُنتصِر وشفاءٌ لما في الصّدور، ولذا كان طَلَبُ النّصرِ في الآية مقرونًا بسببه منَ الأذى والظّلم، وهو قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 45، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 124، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 474.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 57.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 140.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5073.

معنى الباء في ﴿بِمَا﴾:

استيفاءُ المَحظورِ مؤذِنٌ بإنجاز المعونةِ على إزالته

باء الجَرّ الدّاخِلَةُ على (ما) في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ هي السّببيّة، أي: بسبب تكذيبهم[1]، وفي اقتران الدّعاء بالسّبب إشارةٌ إلى إظهاره لاضطراره بين يديَ الله؛ ودعاءُ المُضطرّ مستجابٌ، وفيه إشارةٌ إلى استيفاء الحاجة بين يدي الله عند استغاثته، ويَصِحّ أن تكون الباءُ للبَدَليّة[2]، أي: اجعل نصركَ بديلًا وعِوَضًا لي عن تكذيبهم، ويصحّ أن تكون الباءُ للآلة[3]، وهي الاستعانة، أي: انصرني بالّذي كذّبوني به، وهو الوعد بالعذاب على التّكذيب، كأنّه قيل: انصرني بإنجاز ذلك الوعد.

بلاغةُ الكناية في اقتران الدّعاء بسببه:

اليأسُ والاضطرار بابا العطاءِ والعون

في الدّعاء المقرونِ بسببه في قوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، كنايةٌ عن يأس الرّسول، فإنّ النّبيّ لا يَستفتِح على قومه بالفصل والقضاء بينَهم وبينه، إلّا بعد أن ييأسَ منهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف: 110]، وفي الدّعاء عليهم كنايةٌ عن عذاب الاستئصال؛ لأنّ النّصر عليهم بسبب تكذيبهم لا يكون إلّا باستئصالهم.

معنى (ما) في سياق الآية الكريمة:

تكذيبُ الرّسولِ في شيءٍ، كتكذيبه في كلّ شيء

(ما) في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ هي الموصولة، والعائدُ محذوفٌ، وتفيد العمومَ في جميع ما كذّبوا فيه الرّسولَ، أو هي المَصدريّة، أي: بتكذيبهم، والموصولةُ اسمٌ، والمصدريّة حرف[4].

نُكْتَةُ حذفِ ضمير المفعول:

حُذِفَ ضميرُ المفعول في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾؛ لظهوره ووضوحه،

(1) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 174.
(2) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 174.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 234.
(4) الخطيب، التّفصيل في إعراب القرآن: 9/ 58.

ودلالةِ ما قبلَه عليه، ودلالةِ كسرةِ النّون على الضّمير المحذوف، أي: بما كذّبوني، أو بتكذيبهم إيّاي[1]؛ فُحِذَف إيجازًا، وصيانةً للفاصلة ألّا تنخرمَ.

موقع جملة ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾:

اللهُ مُنجِزٌ وعدَهُ رُسلَهُ، ولن يخلفَ اللهُ الميعاد

جملة ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ استئنافٌ بيانيّ[2]، كأنّه قيل: فبماذا أجابه اللهُ حينَ دعا بقوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾؟ وقد ألمح الشّعراويّ إلى أنّ "تاريخ الرّسالات يعيد نفسه مع المُكذِّبين، وكأنّه [نموذج] ثابتٌ على ألسنة الرّسل: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، فيتّهمونه ويُكذِّبونه، ويقولون: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [الشعراء: 154]، فتأتي النّهاية واحدة: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾[3]".

دلالةُ الفَصْلِ بـ(ما) ومعناها:

بيانُ أنّ (ما) تأتي مؤكِّدةً لمعمولات الحروف

لم يقل في السّياق الكريم: (عن قليلٍ)، وإنّما فصَل بينَ الجارّ والمجرور بـ(ما) في قوله: ﴿عَمَّا﴾، وهي صِلةٌ زيدَت لتأكيدِ معنى القِلَّةِ الزّمنيّ، في قوله: ﴿قَلِيلٍ﴾، أي: عن زمانٍ قليل، فـ﴿قَلِيلٍ﴾ صفةٌ للزّمان المحذوف، على غرار قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: 159][4]، ويَصِحّ أن تكون (ما) نكرة موصوفة بالقِلّة، أي: عن شيءٍ قليل[5].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّبعيَّة، بتضمين (عن) معنى (بعد):

زمنُ البَعديّة أوسعُ، وزمنُ المجاوَزة أسرع

(عن) في قوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ﴾ للمجاوزة الزّمانيّة، فهي مجاوزة مجازيّة، أي: إنَّ إصباحهم نادمين يتجاوز الزّمنَ القليل، والمُراد به زمنُ التّكلّم بالوعيد، والمعنى على ذلك: بعد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 134.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 140.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10034.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 134.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 234.

قليلٍ ليُصبحُنّ نادمين، بتضمين (عن) معنى (بعد)، على طريقة الاستعارة التّبعيّة[1]، ولم يقل: (بعد قليلٍ ليصبحنّ)؛ للدّلالة على المسارعة وعدم الإمهال، فإنّ المجاوزة أقصر زمنًا.

دلالة الفعل النّاقص ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ﴾:

لكلّ مُضَيِّعٍ قبلَ موته حظٌّ منَ الحسرة والنّدم

التّعبيرُ بفِعْل الإصباح في قوله: ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾؛ للنّصّ على وقت العذاب، وهو وقت الصّباح، ومعنى (يصبح): يدخل في وقت الصّبح، ويُؤيّده قولُه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الحجر: 83][2]، وتحديدُ الوقتِ فيه إشارةٌ إلى عدم إمكان التّدارك أو التّوبة؛ لفوات وقتِهما بتعيين وقتِ الإهلاك؛ لأنّ القول حَقَّ عليهم، والحُكم نافذٌ واقعٌ لا ريبَ فيه، ولذلك لم يقل: (لَيَندَمون)، ويَصِحّ أن يكون ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ﴾ بمعنى الصّيرورة، أي: ليَصيرُنّ؛ ليتحوّلوا مِنَ التّمكّن إلى العجز، ومنَ الغَطْرسة إلى النّدم، وهذا النّدمُ واقعٌ في الزّمن بين معاينة علاماتِ الإهلاك، والفناءِ بالإهلاك[3].

بلاغةُ توالي المؤكّدات في جملة الفاصلة:

المؤكّدات تزيدُ الكافرَ رِجْسًا، والمؤمنَ أُنْسًا

في قوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ تأكُّدُ نزولِ العذابَ بهم بمُؤكِّدات؛ فأُكِّدَ أوّلًا: بـ(ما) المُؤكِّدة في ﴿عَمَّا﴾، وثانيًا: بالقَسَم المُقَدّر المَدلولِ عليه باللّام الموطّئة في ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ﴾، أي: واللّهِ لَيُصبِحُنّ، وثالثًا: لام القَسَم، وهي الموطّئة، أو هي لامُ الابتداء المُؤكّدة، ولا قسَم، ورابعًا: نونُ التّوكيد الثّقيلة، وأيضًا التّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل في: ﴿نَٰدِمِينَ﴾؛ للدّلالة على ملازمتهمُ النّدمَ، إذا عاينوا العذابَ قبلَ هلاكِهم، وفي هذه المُؤكّدات إشارةٌ إلى تحقيق الوعيد، ودفعِ تَوهُّمِ تأخُّرِه أو تَخَلُّفه[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 58.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 58.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 235.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5074.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّصرُ والتّأييد:

التّأييد مشتملٌ على معنى الحِفظ والقوّة؛ ومنه اليَد؛ لأنّها آلةُ الحِفظ والتّناولِ بالقوّة، وأمّا النّصرُ: فهو العَوْنُ والمَنَعَةُ، يقال: نَصَرْتُه، أي: أعنْتُه على عَدوّه ومَنَعْتُه منه[1].

النّصرُ آلةُ التّأييد، وكلاهما مفردةٌ قرآنيّة صميمة

والفرق بينَ النّصر والتّأييد: أنّ النّصر هو أثرُ التّأييد، فهو مِن أمارات حصولِ التّأييد، فالتّأييدُ آلتُه النّصْرُ، بدليل قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ [الأنفال: 62]، وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ [الأنفال: 26]، فالنّصرُ وسيلةٌ للتّأييد.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أيّد، نصر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»